الفصل الثالث

العصر العباسى الثالث

٣٣٤ - ٤٤٧هـ/ ٩٤٦ - ١٠٥٥م

١ – ظهور بنى بويه وقيام دولتهم.

٢ – سياسة بنى بويه مع الخلفاء العباسيين.

٣ – العراق فى عصر بنى بويه.

٤ – الحضارة الإسلامية فى عصر بنى بويه.

العصر العباسى الثالث

٣٣٤ - ٤٤٧هـ / ٩٤٦ - ١٠٥٥م

١ - ظهور بنى بويه وقيام دولتهم:

عاش الديلم وهم أقوام من غير الفرس جنوبى بحر قزوين، وأسلموا فى وقت متأخر على مذهب الشيعة الزيدية.

ولما كان الديلم معروفين بشجاعتهم وقدراتهم العسكرية الفائقة، فقد استعان بهم عديد من الحكام المسلمين فى الهضبة الإيرانية، وتطرق بعضهم إلى بغداد.

ينتسب بنو بويه - وهم على والحسن وأحمد - إلى الديلم، وقد عملوا فى جيش القائد الديلمى ما كان بن كاكى، فلما هزم فى بعض حروبه ضد مواطنه مرداويج بن زيار، غيروا مواقعهم إلى جانب المنتصر.

كان مرداويج قد وضع يديه على دولة الحسن بن زيد العلوى - الملقب بالأطروش - بطبرستان، وامتد نفوذه امتدادًا واسعًا فى القسم الغربى من إيران.

رحب مرداويج ببنى بويه وخلع عليهم، وولى كبيرهم عليًا بلاد الكرج، فأثبت كفاءة فى حكمها، وتعاظمت سلطته بعد أن استولى على أصبهان.

أثار ما حققه على بن بويه من نجاحات غضب مرداويج فأنفذ إليه أخاه وشمكير فى جيش كبير، فلما اقترب من أصبهان زال عنها على وقصد أرجان فاستولى عليها، ثم ثنى فى سنة ٣٢٢ بشيراز، بينما استولى أخوه على كرمان.

كتب على بن بويه إلى الخليفة الراضى، يطلب منه أن يفوضه أعمال فارس، وتعهد بأن يؤدى ألف ألف درهم فى مقابل ذلك وبأن ينتظم فى أداء هذا المبلغ كل عام، فأجابه الخليفة وأرسل إليه الخلعة والتفويض واللواء، ولكن عليًا احتال على الرسول فارتدى الخلعة، وقرأ التفويض على أهل شيراز، ولم يلبث أن امتنع عن إعطاء الرسول ما قد وعد به من مال.

تأهب مرداويج فى إرسال جيش يقضى به على بنى بويه قبل أن يستفحل أمرهم، فأسرع على بن بويه، وتفاوض معه واتفق الطرفان على أن يقيم على الخطبة لمرداويج فيما تحت يديع من بلاد، ويبعث إليه بأخيه الحسن ليكون رهينة تضمن التزامه بالاتفاق.

فى سنة ٣٢٣ اغتيل مرداويج على أيدى بعض غلمانه الأتراك فزالت بموته أكبر عقبة تحول دون البويهيين فى إيران.

استولى بنو بويه على أصبهان والرى وهمذان وكرمان وبقية العراق العجمى، ثم تجاوزه إلى العراق العربى فاستولى أحمد بن بويه على الأهواز فى سنة ٣٢٦هـ.

بدأ البويهيون يتطلعون إلى العراق بعد أن فرغوا مما جاوره من بلاد، ولما كان الخ الأكبر وهو على مشغولا بتوطيد أمره فى الدولة الجديدة، فقد جعل العراق منوطًا بأخيه الأصغر أحمد الذى وصل فى سنة ٣٣٢ إلى مشارف بغداد وكادت تقع فى يديه، لولا ما أبداه توزون، التركى من شجاعة فى التصدى له، فأوقع به الهزيمة وأرغمه على الارتداد إلى الأهواز.

فى سنة ٣٣٣ مات توزون وخلفه فى منصبه كأمير للأمراء كاتبه ابن شيرزاد، فاضطربت أمور العراق، وكاتب القواد أحمد بن بويه يدعونه لدخول بغداد.

فى ١١ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ ديسمبر ٩٤٥ دخل أحمد ابن بويه بغداد، ورحب به الخليفة المستكفى، وخلع عليه، وعقد له لواء أمرة الأمراء، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه عليا صاحب بلاد الفرس بعماد الدولة، كما لقب أخاه الحسن صاحب أصبهان والرى بركن الدولة، وأمر أن تنقش ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم.

بدخول أحمد بن بويه بغداد فى سنة ٣٣٤ وتوليته أمره الأمراء بدأ العصر البويهى الذى امتد حتى سنة ٤٤٧/ ١٠٥٥.

٢ - سياسة بنى بويه مع الخلفاء العباسيين:

بعد أيام قليلة من دخول معز الدولة بغداد، أقدم على خلع الخليفة المتكفى، لاتهامه بالتآمر مع الحمدانيين ضده، فتقدم اثنان من الجنود الديلم من الخليفة وساقاه إلى دار الأمير البويهى الذى أرغمه على أن يخلع نفسه، وسلمت عيناه، وحبسه فظل فى الحبس حتى مات فى سنة ٣٣٨.

يذهب بعض المؤرخين إلى أن خلع البويهيين للمستكفى، وتوليته ابن عمه المطيع، دليل على ضعف الخلافة العباسية فى عهدهم، والحقيقة أن هذا القول مغالى فيه؛ لأن الخلافة لم تفقد شيئًا بمقدمهم، ولم يأت البويهيون بجديد، أى لم تكن الخلافة قوية حتى يضعفوها، الصحيح أن الخلافة كانت ضعيفة وظلت ضعيفة والجديد الذى أتى به البويهيون هو أنهم قننوا هذا الوضع، وأهم مظاهره أن إمرة الأمراء صارت وراثية فى بيتهم، واتخذوا ألقاب الملك وخطب لهم مع الخليفة فى بغداد.

وفى المقابل فقد استفادة الخلافة من وجود بنى بويه إلى حد بعيد ويدل على ذلك أنه قد وليها خلال ما يزيد على مائة عام أربعة خلفاء فحسب، وبطبيعة الحال فإن ذلك كان يوفر قدرًا من الاستقرار حرمته الخلافة قبل ذلك.

واجه بنو بويه عقب مقدمهم مشكلة كبيرة، وهى أنهم كانوا شيعة زيدية، فى حين كانت الخلافة التى تحكم سنية عباسية.

ويقال أن معز الدولة فكر فى أن ينقل الخلافة من العباسيين، إلى العلويين لكنه عدل عن ذلك بعد أن قال له بعض خواصه «ليس هذا برأى، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه، مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصاحبك صحى خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا».

الواقع أن عدم نزع الخلافة من بنى العباس، كان حكمة من البويهيين حتى يستأثروا وحدهن بالنفوذ دون الخليفة، وقد وجدوا فى مذهبهم الزيدى غطاء

شرعيًا لذلك، فقد أجاز الزيدية - وهم شيعة معتدلون - أمامية المفضول مع وجود الأفضل.

وفى الوقت نفسه خشى بنو بويه إذا هم حولوا الخلافة عن العباسيين، أن يتألب عليهم منافسوهم من السامانيين والغزنويين وغيرهم من الحكام، فضلا عن أهل السنة أنفسهم.

ورغما من تجريد الخلفاء من سلطاتهم السياسية، فقد ظلوا يحتفظون بحقهم فى تعيين القضاة وأئمة المساجد والنقباء وولاة الحسبة وأمراء الحج وغيرهم من أصحاب الولايات الدينية، كما احتفظوا بحقهم فى تولية العهد أبنائهم وتفويض الأمراء حكم البلاد، وعندما التمس محمود الغزنوى من الخليفة القادر بالله تفويضًا، بعث به إليه ولقبه يمين الدولة وأمين الملة وعند وفاة محمود فى سنة ٤٢١ لقب القادر ولده مسعودًا بالناصر لدين الله.

كان يحدث أحيانًا أن يسىء الأمير البويهى على الخليفة العباس، خصوصا عندما تشتد حاجته إلى المال، فبعدد حول معز الدولة بغداد صادر إقطاعات المستكفى وضياعه، وأقطعها قواده وخواصه، واقتصر له على خمسة آلاف درهم مساومه نقصت عن ألفين فى خلافة المطيع، على أن عضد الدولة أعاد فيما بعد بعض هذه الضياع على الخليفة.

وفى سنة ٣٥٦ مات معز الدولة وخلفه ولده عز الدولة بختيار، فسار سيرة أبيه مع المطيع وصادره وضيق عليه إلى أن مات فى سنة ٣٦٣.

لم يكن الطائع بأحسن حال من المطيع، فعندما احتاج بهاء الدولة إلى أموال أشار عليه أصحابه بأن يخلع الخليفة ويستولى على ما فى داره من ذخائر، وعلى ذلك فقد تقدم إليه بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يده، لكنه أنزله عن سريره، والخليفة يستغيث ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحمله إلى دار بهاء الدولة حيث خلع وبويع للقادر بالله فى سنة ٣٨١هـ.

شارك بنو بويه العباسيين فى بعض مظاهر سيادتهم الدينية فأصبح اسم الأمير البويهى منذ عهد عضد الدولة يذكر مع الخليفة فى خطبة الجمعة، بل إن عضد الدولة عندما اختلف مع الطائع، حذف اسمه من الخطبة شهرين.

لم يتوقف طموح عضد الدولة عند هذا الحد، فقد شارك الخليفة فى ضرب الطبول والأبواق أمام داره فى أوقات الصلاة، فصارت تضرب ثلاث مرات، ارتفعت إلى خمس فى عهد جلال الدولة شأنه فى ذلك شأن الخليفة نفسه.

وإذا كان عضد الدولة قد تلقب فى حفل عام بتاج الملة فصار أول من يتخذ لقبين من الأمراء، فإن ولده شرف الدولة تلقب بشاهنشاه، أما جلال الدولة فإنه طلب طلب من القائم بأمر الله فى سنة ٤٢٥هـ أن يخطب له بملك الملوك، فامتنع فى البداية، ثم استفتى الفقهاء، فأجار ذلك أربعة منهم، واعترض قاضى القضاة ولم يقف اعتراضه دون رغبة جلال الدولة فإنه طلب من القائم بأمر الله فى سنة ٤٢٥هـ أن يخطب له بملك الملوك، فامتنع فى البداية، ثم استفتى الفقهاء، فأجار ذلك أربعة منهم، واعترض قاضى القضاة ولم يقف اعتراضه دون رغبة جلال الدولة.

الأكثر من ذلك فإن أبا منصور بن جلال الدولة تلقب بالملك العزيز فى سنة ٤٣٠، وبعد عشرة سنوات تلقب أبو نصر خسرو فيروز بالملك الرحيم.

٣ - العراق فى عصر بنى بويه:

أقام البويهيون على نحو أساس فى شيراز لكنهم كانوا يأتون على بغداد بين حين وآخر، حيث أعدت لهم دار مخصوصة يزاولون منها أمور الحكم.

كان أحمد بن بويه الملقب بمعز الدولة هو أول أمراء بنى بويه بالعراق، وقد سعى على توطيد حكمه بها، ومن أجل ذلك دخل فى نزاعات مع الحمدانيين الذين كانوا يطمحون إلى استرداد منصب إمرة الأمراء، واستطاع أن يطردهم من بغداد، ومضى إلى تكريت فى الشمال ونهبها، ثم تعقب البريدين بالبصرة، وأرغم أبا القاسم البريدى على الهرب منها إلى القرامطة بالبحرين.

خلص أمر العراق إلى معز الدولة فضلا عن الأهواز وكرمان وكانت علاقاته طيبة بأخويه عماد الدولة فى فارس وركن الدولة فى الرى وهمذان وأصبهان.

مات معز الدولة فى سنة ٣٥٦ فخلفه ولده بختيار الذى تلقب بعز الدولة لكنه لم يعمل بنصيحة أبيه الذى أوصاه بطاعة عمه ركن الدولة، وابن عمه عضد الدولة ابن عماد الدولة فعمل على مناوأتها، وانصرف إلى جمع الأموال ومصادرة كبار الديالمة مما أدى إلى اضطراب أمور العراق فاستنجد بعضد الدولة الذى خف إلى معاونته، على أنه لم يلبث أن انقلب عليه وحاربه وقتله وولى مكانه فى سنة ٣٦٧.

بلغت الدولة البويهية أوجها فى عهد عضد الدولة واستطاع أن يوحد إمارات البويهيين فى العراق وكرمان وفارس وخوزستان وغيرها، الأمر الذى يوضحه خطاب الخليفة الطايع له فى حفل عام «قد رأيت أفرض إليك ما وكل الله تعالى إلى من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها، وتدبيرها فى جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى، فتولى ذلك مستخيراً بالله».

بعد وفاة عضد الدولة سنة ٣٧٢ خلفه ولده أبو كاليجار وتلقب بصمام الدولة، وعلى أن أخاه شرف الدولة طمع فى ملك العراق فاستولى على واسط، ولما أدرك صمام الدولة أن لا طاقة له بأخيه استسلم له فحبسه فى إحدى قلاع فارس وجلس مكانه فى سنة ٣٧٦.

لم يطل العهد بشرف الدولة فمات بعد ثلاث سنوات ليخلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة، فاستطال عهده إلى سنة ٤٠٣.

فى عهد بهاء الدولة قامت عدة حروب بينه وبين إخوته وبنى عمه كما أن إيثاره للأتراك من جنوده أدى إلى ثورة جنوده الديلم عليه.

خلف أبو شجاع أباه بهاء الدولة، وتلقب بسلطان الدولة ولما كان صبيًا صغيرا فى نحو الثالثة عشرة، فقد نازعه أخوه قوام الدولة، صاحب كرمان، كما نازعه أيضا أخوه الآخر مشرف الدولة الذى أجبره على التنازل عن الملك والرحيل إلى الأهواز وولى مكانه فى سنة ٤١١.

خلف جلال الدولة أخاه مشرف الدولة فى سنة ٤١٦ وفى عهده تصاعد نفوذ الجنود الأتراك بل أنهم ثاروا عليه فى سنة ٤١٩ ونهبوا داره وحصروه ومنعوا عنه الطعام والماء مما اضطره إلى طلب وساطة الخليفة القادر بينه وبينهم.

كذلك نشب نزاع بين جلال الدولة وبين أبى كاليجار ابن أخيه سلطان الدولة، وكان يحكم فارس، واضطر جلال الدولة إلى الهرب من بغداد ثلاث مرات إلى أن تم الصلح بينهما فى سنة ٤٢٨.

توفى جلال الدولة فى سنة ٤٣٥ ولم يستقر الحكم لولده أبى المنصور فيروز الملقب بالملك العزيز، فقد استمال أبو كاليجار قواده بالأموال، فأقاموا الخطبة له ببغداد، فدخلها وولى مكان الملك العزيز، وتلقب بعماد الدولة لكنه لم يعمر فى حكمه سوى خمس سنوات، سعى خلالها إلى درء خطر السلاجقة ببناء سور حول مدينة شيراز ومسالمة طغرلبك ومصاهرته.

كان أبو نصر خسرو فيروز بن عماد الدولة هو آخر أمراء بنى بويه ببغداد، وقد تلقب بالملك الرحيم، ونشبت حروب بينه وبين إخوته وكانوا كثيرين مما مهد السبيل لدخول السلاجقة بغداد فى سنة ٤٤٧.

٤ - الحضارة الإسلامية فى عصر بنى بويه:

ازدهرت الحضارة الإسلامية فى عصر بنى بويه ازدهارا عظيما وتعددت مراكزها، فلم تعد قصرا على بغداد والبصرة والكوفة، وإنما تعدتها إلى الرى وأصفهان وشيراز وقام البويهيون أنفسهم بدور كبير إلى فى هذا المضمار، وينسب إلى عضد الدولة ابتناء مساجد عديدة ومستشفيات فى مدينة بغداد مثل البيمارستان العضدى الذى أوقف عليه أوقافا كثيرة، كما بنى مشهدا على ومشهد الحسين.

أما فى شيراز - وهى عاصمة الدولة - فقد بنى عضد الدولة بها قصرا احتوى على ثلاثمائة قاعة، وغطى جدرانها بالقيشانى المحلى بالرسوم.

وإذا كان السامانيون قد شجعوا الثقافة الفارسية، فإن عضد الدولة من ناحيته

شجع الثقافة العربية، فقصده المتنبى شاعر العربية الكبير ممتدحا، وأبو على الفارسى وهو من كبار النحاة وأهدى إليه كتابه فى النحو ويدعى "إيضاح" كما قصده أبو الوفاء الفلكى المشهور.

نهج أمراء بنى بويه نهج عضد الدولة فابتنى شرف الدولة مرصدا بشيراز، أعان على تقدم علم الفلك كما أنشأ سابور بن أزد شيروزير بهاء الدولة مكتبة ببغداد احتوت على عشرة آلاف مجلد توجه إليها العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

كذلك فإن بعض رجال بنى بويه كانوا من رجال الدولة كانوا من رجال الأدب، يكفى أن نذكر منهم أبا الحسن البصرى المعروف بالماوردى الذى ألف كتاب الأحكام السلطانية، وهو من المصادر الهامة لدارس التاريخ، كما منهن منهم أيضا أبو الفضل بن العميد الكاتب الذى قيل فيه "بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد". والصاحب ابن عباد الوزير الخطير الذى ألف كتاب "المحيط فى اللغة".

ومع أن بنى بويه كانوا شيعة زيدية إلا أنهم أتاحوا الفرصة لمختلف المذاهب الإسلامية لأن تعبر نفسها، فانصرف الخليفة القادر إلى تصنيف الكتب للرد على المعتزلة والشيعة، وفى الوقت نفسه ظهر القاضى عبد الجبار عالم المعتزلة الكبير وخصيمه اللدود أبو الحسن الأشعرى متكلم أهل السنة وفقيههم والشيخ المفيد أكبر مجتهدى الشيعة. وفى جنوبى العراق بالبصرة تصاعد نجم أخوان الصفا الذين وضعوا إحدى وخمسين رسالة فى مختلف مناحى الفكرة.

***